

# لماذا تحولت المدينة إلى وحش والرواية إلى أداة للهجاء

## روايات عربية تواجه الاغتراب وقسوة المدن وتتمرد على نمط الحياة الحديثة



الإحسان المعاصر يعاني الوحدة (لوحة للفنانة نور بهجت)



المدينة تلتهم البشر دون رحمة (لوحة للفنانة هيلدا حيارى)

يعمل مزيّنًا للموتى، ويسعى لرسم الابتسامات على وجوه الموتى والأحياء على السواء، إذ أنه يعمل عملاً إضافياً أثناء المواسم والمهرجانات في تقديم العروض البهلوانية التي تُضحك الأطفال. يغيظ فرانسوا زبائنه المتوفين، فقد تخلصوا أخيراً من الضرائب المفروضة والفواتير المعلقة فوق الرقاب مثل المصلات، وكذلك من السعي اللاهث وراء لقمة العيش في حفلات تصل متأخرة، فتتبرع حفيفة مدير العمل وتستدعي تقريره المهين. ثم يحدث أن يخفي فرانسوا في رحلة جبلية مع صديقه المهاجر الأفريقي، فتتهم سيدة عجوز تدعى نينا جانين بالتسبب في اختفائه، نظراً لهوسها بالأحذية وتخطيطها السابق لسرقة حذاء البهلوان المميز الذي يرتديه فرانسوا في المهرجانات. الفنتازيا في هذه الرواية ليست تقنية مجانية على الإطلاق، وليس الهدف منها إضفاء البهجة والخيال على النص أثناء مداهش، يقدم لنا الكاتب المصري الكندي أسامة علام مدينة مونتريال، وقد اكتسبت بثوب غرائبي يتسم بالقسوة المرزوجة بالمرح والسخرية، البطل، فرانسوا ليكو،

على المتاحف والمعالم الأثرية لكبرى المدن الأوروبية، والتي يظهر خلالها الجمال كأنما صار حبيس المتاحف أنيقة، فيما يُعرض الإنسان المعاصر في متاحف مفتوحة للوحدة والاغتراب. ثمة رواية أخرى تدور أحداثها في مدينة أوروبية كبرى هي رواية "على خط غريبتش" للكاتب المصري شادي لويس، حيث يتوزع الراوي في إقامة جنازة لتوابع لاجئ سوري مسلم، لا هو من دينه ولا من أبناء جلده، إذ يموت اللاجئ الشاب في إنجلترا بعد رحلة هروب عاجائية من موت محقق. يعيش السارد وحيداً بعدما غادرت صديقته، فصارت حياته أشبه بالبعث المتجمد الذي تركته خلفها يوم غادرت الشقة ونهبت إلى الأبد؛ حياة مجمدة منزوعة النكهة والحرارة، كما يشعر باعتراّب مائل في وظيفته الحكومية، يبدو منفصلاً تماماً عما يقوم به، يتحرّك بدافع الروتين والنظام لا أكثر ولا أقل. عن حالة السارد، إذ يسكنها أشخاص متوحّدون مع أنفسهم، ينتمون لأجناس شتى وخلفيات غير متجانسة؛ ثمة امرأة سمراء تلون وجهها بالجيسر الأبيض وتمارس عنصرية مضادة، وأخرى من أصل كردي ترفض الحديث بلهجتها الأصلية وتدعي عدم الفهم إزاء كل مسألة رسمية، وأخر من أصل عراقي يُسلي وقته بحضور جنازات الراحلين العرب دون سابق معرفة بهم. إنها المدينة وقد صارت متحفاً والغربة والتوحد والموت، كل شيء مرهون بالسجلات، عُرضة للإجراءات التقشفية، ليست الوظائف فقط، بل المرض والكلام والشاعر المتبادلة. وفي روايته الغرائبية الطريفة والمؤلمة، والتي عنوانها "الاختفاء العجيب لرجل مداهش"، يقدم لنا الكاتب المصري الكندي أسامة علام مدينة مونتريال، وقد اكتسبت بثوب غرائبي يتسم بالقسوة المرزوجة بالمرح والسخرية، البطل، فرانسوا ليكو،

تمثل المدينة جوهر الحضارة وأرقى التجمعات الإنسانية بما تقدمه من نمط حياة لا يتوقف عن التطور ومن نظم اجتماعية متشعبة ومتجددة، وهي علاوة على كل ذلك وطن جامع لكل الفنون. أدباء ومسرحيون وسينمائيون ورسامون وموسيقيون وغيرهم تخص بهم المدن وتوفر لهم فضاء للتلاقح والتلاقح، وبالتالي هي فضاء يدفع بالفن إلى التجدد. لكن نتساءل ما هو الدافع وراء انتشار موجة هجاء المدينة خاصة في الأدب؟

تمثل المدينة جوهر الحضارة وأرقى التجمعات الإنسانية بما تقدمه من نمط حياة لا يتوقف عن التطور ومن نظم اجتماعية متشعبة ومتجددة، وهي علاوة على كل ذلك وطن جامع لكل الفنون. أدباء ومسرحيون وسينمائيون ورسامون وموسيقيون وغيرهم تخص بهم المدن وتوفر لهم فضاء للتلاقح والتلاقح، وبالتالي هي فضاء يدفع بالفن إلى التجدد. لكن نتساءل ما هو الدافع وراء انتشار موجة هجاء المدينة خاصة في الأدب؟

تلك التي لطالما كانت مقصد الكُتاب والمبدعين والمُحَفَرِّين لأخيلتهم وتصوراتهم الفنية المتبكرة.

صنار الأمر أشبه بتصار جديد في الرواية العربية، يطرح فكرة الاغتراب، ويتعرض إلى المدينة الصارمة باعتبارها غولاً يلتهم حياة البشر روحاً وبدناً؛ إنه خليط من الإعجاب بالمدينة والنقمة عليها، نحتاج لأن نستكشف طبيعته ونستشرف نتائجه، حتى نضع هذا التيار الإبداعي في إطاره المناسب.

### قطط تائهة على الطريق

في روايته "قطط تعبر الطريق"، يتناول الكاتب المصري حاتم حافظ عالم المدينة الأوروبية الحديثة، في فرنسا بالتحديد، حيث مدينة النور والفن والحب والإسعاد الليلي، وحيث تتسم أغلب الشخصيات بالتيه والضياغ، حتى المستسلمين منهم. الكل فاقد للبوصلية والاتجاه في شوارع المدينة الكبيرة ومحطاتها اللانهائية.

تلقي عالية، اللاجئة السورية التي نُقلت من وحشية الحرب الطاحنة، لتسقط في فجاج المدينة الكبيرة الساحرة، باريس بعنجهيتها وعنصريتها وتسلطها على مصائر الوافدين؛ تحمل عالية ماضيها في حقبة سفر تحملها من هنا لهنالك، بحثاً عن فرصة عمل في مجال الترجمة تُشعرها بالتحقق والاستقلالية، ومن ثم القدرة على الاختيار. فتسقط في حياض فرانسي، الناشر الفرنسي، ورفيقته سهلة ذات الأصول العربية، تلك التي تُجبر عالية على ترجمة رواية سورية تحكي تفاصيل حياة لاجئة تهرب من برائن الحرب؛ إنها قصة عالية نفسها، كأنما تريد لها المدينة أن تنزلق من جديد في قسوة ماضيها القريب، قبل أن تُسقط سهيلة إزمتها الشخصية على سائر الشخصيات، تحتمي بانتمائها لأخوية سرية تضمها مع فرانسي، الناشر الفرنسي، فتتسلط بذلك على مصائر المحيطين، ربما كوسيلة للإفلات من متاهتها الخاصة في حياة باريس الليلية التي تحفل بالكثير من المتناقضات، ومن اندعام قدرتها على العودة إلى جذورها السابقة. حتى ميشيل، الحبيب الفرنسي، نجده تائهاً في مدينته، منذ ترك عمله السابق في المجال الفني، عازماً على شق طريقه على طريقته، ومنذ فقد اتصاله مع جذوره الريفية، فلم يجد الملمح بعيداً عن عالية وابتنتها الصغيرة المرتبطة به.

أحمد القرملاوي  
كاتب وأديب مصري



تُعرف البلدان بمُدُنُها الهامة ومعالمها الشهيرة، فحالمًا تذكر فرنسا نذكر باريس، ونسقط في خيالنا برج إيفل وقوس النصر، وحين يُشار إلى الولايات المتحدة الأمريكية يخطر في أذهاننا ناطحات شيكاغو وشوارع نيويورك. كما أن بعض المدن تفوق في شهرتها البلدان التي شيدتها، فربما تستدعي مدينة فيينا لخيال الواحد منا ما لا تستطيعه النمسا، ومثلها مدن أمستردام وهونغ كونغ وبرشلونة وأثينا، فالمدنية هي المُعلم الأوضح والأكثر سطوعاً بين معالم الحضارة الإنسانية، والدليل الإبرز على سعي البشر وراء التقدم والمدنية. وقد اشتهرت العديد من المدن الكبرى حول العالم بشتى مجالات الفنون؛ فقد ذاع صيت باريس منذ قديم الأزل كعاصمة للمتاحف والموضة، ومثلها فلورنسا كعاصمة للنحت والفنون التشكيلية، ولندن كعاصمة للمسرح والدراما، وبرلين كعاصمة للفنون من العموم، كما تصعب منافسة برشلونة في فنون العمارة، وهوليوود في صناعة السينما، إلى آخره. ارتبطت أسماء العديد من المدن بمهرجانات السينما التي تستضيفها، أشهرها مدن كان وبرلين وتورونتو ونيويورك وروتردام وموسكو.



من الأعمال الروائية بمُدُنُ بعينها، مثل روايات دوستوفسكي التي تدور أكثر أحداثها في مدينة سان بطرسبرغ، وروايات باتريك موديانو التي تتناول حياة باريس المعروفة والخفية، ومثلها روايات نجيب محفوظ التي تُشرح القاهرة في مختلف الأزمنة.

لذلك نستطيع القول بأن المدن والفنون صنوان في ركب الحضارة؛ حصانان يجزان العربية جنباً إلى جنب، ومن الغريب ألا يسود بينهما الوئام والغزل المتبادل، كما جرى الحال منذ قديم الأزل. غير أننا صرنا نلج في الكثير من الأعمال الروائية المتأخرة ترصداً بحياة المدينة، وهجاءً لألياتها التي تتسلط على رقاب الناس. كما لوحظ انتقال هذه النزعة الهجائية للمدنية إلى ساحة الرواية العربية، خاصة في هذه الروايات التي تتناول حياة المغتربين في المدن الكبرى،

### النزعة الهجائية للمدنية انتقلت إلى ساحة الرواية العربية، خاصة في روايات تناول حياة المغتربين في المدن الكبرى

وبرغم دأب الكاتب على الغوص في تحليل الدوافع النفسية والاجتماعية لما أقدمت عليه "ماري" الأوروبية، بتركها طفلتها الوحيدة وتضحيتها بكل ما يتعلق باهلها وماضيها السابق، إلا أن الشعور الذي يُحيم على الرواية بشكل عام هو الوحدة والاغتراب، إذ لا تُشعر أي من شخصياتها الرئيسة باتساق كامل مع محيطها الموضوعي، لا الكاتب اللامع في مجاله والذي يكابد إحساساً عميقاً بالخزي من ماله ومن فظاعة استغلاله لموهبته، ولا ماري التي لطالما عانت منذ طفولتها من قسوة التعمُّر والتوقعات التي تجبر على التوافق معها، قبل أن تتال رضاء الآخرين.

حتى الشخصيات الثانوية تُعاني نفس الوحدة والانكفاء على الذات؛ تحمل سخطاً ممتوماً يُفصح عن نفسه في صورة عنف زائد أو توحد تام، إنه نتاج المدنية الحديثة التي تتأقظ لدرجة مخفة الصورة الكلاسيكية لمن العصر الباروكي التي يستعرضها الراوي عبر تجواله

### ذائقة طعام الدكتاتور

"ذائقة طعام هتلر" للكاتبة الإيطالية روزيلا بوسنورينو رواية إنسانية تفضح وحشية الإنسان ومدميته حين يمتلك السلطة المطلقة، وهي سرد ممتع لنسوة صغيرات فقدن كل عزيز وأمكنة خلال الحرب، وما هن يسقن لفقدان حياتهن أيضاً.

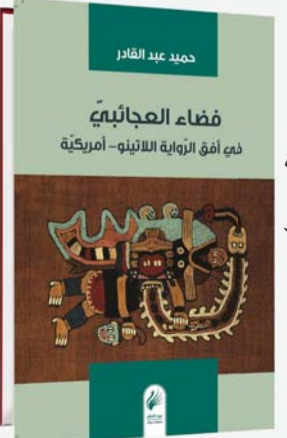
تأتي هذه الرواية ضمن ذلك النوع الذي يقوم على فكرة معينة وجديدة لتقديم تفاصيل صغيرة وإنسانية ضمن كتلة الحرب الحارقة، لاسيما إن كانت الحرب العالمية الثانية بكل ما فيها. تحكي الكاتبة أنها استمعت لمقابلة مع سيدة ألمانية تدعى مارغو فولك تقول فيها إنها كانت واحدة من بين 15 شابة وقع اختيارهن لينقن طعام الزعيم النازي أدولف هتلر في مقره "وكر الذئاب" الذي أدار منه المعارك الحربية التي أدارها بروسيا الشرقية (بولندا حالياً). كان التكليف بهذه المهمة في الأشهر الأخيرة من حياة ذلك الزعيم وتلك الحرب، خوفاً من أن يسممه الأعداء لإجبار ألمانيا على إنهاء الحرب.



### عجائبية الرواية اللاتينية

يقدم كتاب "فضاء العجائبي في أفق الرواية اللاتينية-أمريكية" للكاتب حميد عبدالقادر مسار الرواية اللاتينية-أمريكية، ويسعى لاستكشاف أفق العجائبية والسحرية التي اشتهرت بها، والتي جعلت روائي أميركا الجنوبية يتطورون إبداعياً، وحتى فكرياً، بالنظر إلى مدى الاقتراب منها عبر المحاكاة والافتداء والتقليد، أو الابتعاد عنها بالتخلي والتجاهل وعدم الاكتراث.

ويؤكد المؤلف أن الرواية اللاتينية-أمريكية تطورت في علاقتها بالواقعية السحرية أو العجائبية على مدى العقود العشرة الأخيرة. ويبحث في نشأة الواقعية السحرية أو "العجائبية" فيها، ويتضمن الأسباب التي دعيت الأجيال الروائية الجديدة للتخلي عنها، واختيار سردية مغايرة. ويتناول عبدالقادر في كتابه، الصادر أخيراً عن دار ميم للنشر بالجزائر، التيارات الأدبية الجديدة التي ابتعدت عن الواقعية السحرية، منذ مطلع الثمانينات إلى غاية التسعينات من القرن العشرين، وجاءت كرد فعل على التقليد الأدبي الأعشى للواقعية السحرية التي سادت لفترة طويلة في أميركا اللاتينية.



### قوة الحب

تحكي الرواية "عشق هادي" للروائي الإيراني المعروف نادر إبراهيمي (1936 - 2008) قصة حب عميقة لمعلم مثقف من الريف يقع في غرام فتاة أذرية ويتزوجها، قبل أحداث الثورة الإيرانية عام 1979. ويقدم الأستاذ العائش عبر قوة الحب والأمل، رغم سلسلة المتاعب، نموذجاً بسيطاً ولكن عميقاً يلمح النابض المتجدد لحياته مع زوجته، متجاوزاً كل ما يمكن أن يُكر صفوها ويضعف من وهجها بعد ظهور مشاكل جديدة متصلة بالحياة اليومية الروتينية للزوجين.

تدعم سير أحداث الرواية المشوقة حوارات جذابة، ولغة سهلة متدفقة، وتاملات بالغة العذوبة والرقّة، تجعل قارئها يتوقف عندها وتدفعه للتفكير في الدليل الشامل الذي تقدمه الرواية عن إمكانيات العشق الحقيقي الهادي وقدرته على تجاوز المحن، في أكثر الأوقات عصفاً بالإنسان وأشدّها حلقة. ونذكر أن الرواية التي ترجمها أحمد موسى صدرت في مسقط عن دار نثر للنشر والترجمة العربية.

